تأملات

للأستاذ محمد احمد الغمراوى

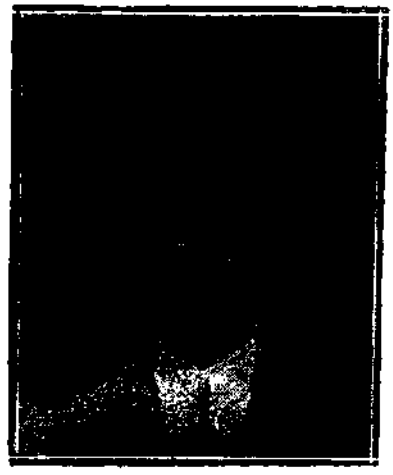

ضلّت الإنسانية عن ربها وعبدت المال والقوة ، ودانت لهما بالطلب والحرص والإكبار ؛ وفى سبيل المال والقوة نُسى كل شيء : من دين أو فضيلة أو مبدأ ، وفعل كل شيء من : ظلم وقطيعة ونكث . يخدع كلٌّ كلا فى السلم كما يتخادع أهل الحرب ، كأن أيام الناس فى هذه المدنية حرب كلها ولكن بسلاح مختلف . فلحرب السلم سلاحها وفنونها وخططها ، كالحرب الدبابة والغواصة والطيارة . ففى السلم يتحارب الناس وتتحارب الأمم بالتجارة وحواجزها الجمركية ، وبالصناعة وموادها الخام ، ثم بالدعاية والسياسة ؛ وفى سبيل ذلك يسخّر الأدب بفنونه والعلم بفروعه ، تتنافس فى ذلك الأمم ، وتتنافس فى ذلك الطوائف والأفراد داخل كل أمة ؛ حتى الفضائل جعلت سلاحاً وسبيلاً إلى المَلَب . فالتاجر إن صدق يصدق لا لأن الكذب يزرى ، أو لأنه منهى عنه فى الدين ، ولكن لأن الصدق يجزئ ويربح ، ولو وجد فى الكذب ربحاً لكذب . والأمم تتعاهد ، فإن وجدت فى الوفاء ربحاً وفت ، وإن وجدت الربح فى النكث نكثت . فالمال هو البغية ، والقوة هى الغاية ، والشهوة هى السائق ، والهوى هو الغالب ، كأن قد غلب على هذه المدنية فى معاملاتها روح الأحراج وقانون الأدغال ؛ وما يقول « دروين » إنه كان غالباً على أنواع الحيوان فى أحقاب التشوء

ويل للانسان من نفسه ومن أخيه الإنسان حين يضل كلٌّ عن ربه . فلو لم يكن للدين ضرورة ، لجعله حال الناس اليوم ضرورة ؛ ولو لم يقم على وجوب التدين برهان ، لكان ما آل إليه أمر الناس بعد ترك التدين هو البرهان . إلا أن الإنسان يذكر وينسى ، ويؤمن ويكفر ، ويطيع ويعصى ، حسب الظروف . فى الشدة يلجأ إلى الله ، وفى البلاء يكثر من الدعاء ، ويستغفر ربه وينيب : يفعل ذلك الأفراد ، ويفعل ذلك الأمم ، حتى إذا استجاب الله وفرّج الكرب وكشف البلاء ، نسى الإنسان ونسيت الأمم ما كانوا يدعون الله من أجله ، وجعلوا لله أنداداً ، وانقلبوا له أضداداً ، وعادوا إلى آلهتهم من الشهوة والقوة والمال ، كأن لم يكن بلاء وكربة ، وكأن لم يكن دعاء وتوبة ؛ وجعلوا يضحكون من خوفهم الذى كان ، وجزموا بأن أسبابه لن تعود !

لقد كانت الحرب الماضية ، وجاءت الناس بكرب لم يروا مثله من قبل ، فجأر الناس إلى الله وجأرت الأمم ، وجعلت تنذر النذور ، وتبذر الوعود والعهود ، وتقيم الصلوات العامة ، تأمر بها الحكومات ، ويركع فيها الحكام والملوك . ثم جاء النصر وجاء السلم ، فذهبت النذور هباء ، ولم تلق الوعود ولا العهود وفاء ؛ وكل ما كان هنالك أن جيء بأسماء جديدة أطلقت على مسميات قديمة ، فذهب الاستعمار وجاء الانتداب ، وذهبت المحالفات وجاءت عصبة الأمم ، وعاد الناس وعادت الأمم تبتغي الكسب وتبتغي المال والقوة ، حتى كان من الأمم المنتجة من كانت تحرق ما زاد من غلات أرضها لتبيع الباقي من الأمم الأخرى بثمن أعلى ، وانحدر المال إلى خزائن بعض الأمم ، كما ينحدر الماء إلى مهابطه من الأرض ، فجفت بقاع منه وغرقت بقاع ، وجاعت أمم وتخمت أمم ، وانقلبت الأوضاع واشتد النزاع ، وخسرت الإنسانية السلم ، فخسرت بذلك الحرب قبله ، إذ قامت هذه الحرب

قامت هذه الحرب فماذا كان ؟ كان الذى يعرف كل إنسان أنه كان فى الحرب الماضية : فالنذور تنذر ، والوعود تبذر ، والصلوات العامة تقام ؛ وأصبحت الأمم المتمدينة لا ترى أهنأ من الأمن ، واعتزمت فى مستقبلها أن تتناصف فى قسمة المواد الخام لتعيش إلى الأبد فى سلام !

إنها مدنية مجنونة هذه التي تغبى الله وتعصاه فى الرخاء بعد

أن كشف عنها البلاء ، حتى إذا أخذها بنكثها وإنها جأرت إليه تسأله النجاة ولم يكن لديها ما تتعهد به للناس أو تنذره لله إلا أن تتعايش فى سلام ، وتتناصف فى المواد الخام .

لقد أفلست المدنية الغربية وحق عليها ما حق على المدنيات الخاطبة قبلها . وها هى تنتسف بقوتها الكامنة التى من الله بها عليها فلم تطعه فيها . ها هى حين فسقت عن أمر الله تنفجر بما اختزنت من علم ومال حولتهما فيما حولت قنابل وطرابيد تلقى من الجو وتنثر فى البر والبحر على المحارب وغير المحارب على السواء (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة ، إن أخذه أليم شديد) إنها مدنية كتلك القرية التى ضربها الله مثلاً فى القرآن : (كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف)

إنها مدنية مسيحية اسما لكنها لم تقم قواعدها على نصرانية ولا إسلام . فنصرانية عيسى صلوات الله عليه ليس فيها حرب ولا سلاح ولا استعمار . والحرب فى الإسلام لا تكون فى سبيل الفرد ولا فى سبيل الأمة ولا فى سبيل الجنس ، ولكن فى سبيل الله ليكون الحكم فى الأرض لله .

إن الاستعمار الذى ابتدعته مدنية الغرب ليس من الإسلام فى شىء ، ولا من حكم الله فى شىء . فاستغلال القوى الضعيف فرداً كان أو أمة ينكره الإسلام كل الإنكار . وتحكم أمة فى أمة بالهوى لا يعرفه الإسلام ولم يشرعه الله . وعلو أمة على أمة وشعب على شعب أو جنس على جنس حرمه الله الذى سوّى بين الناس وساوى بين الأجناس ولم يجعل لأحد على أحد فضلاً إلا بالتقوى : تقوى الله الذى خلق الأحمر والأصفر والأبيض والأسود . ففيم استعلاء فريق على فريق ؟ وفيم تحكم لون فى لون أو شعب فى شعوب ؟ (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم . إن الله عليم خبير) .

لقد أعز الله الإنسانية أيما إعزاز حين جعلها خاضعة له وحده سبحانه فى الحكم ، ليس لأحد على أحد سبيل إلا بحق الله طبق دين الله الذى بينه للناس واضح المعالم ظاهر الحدود فى كتابه الكريم الذى فسره رسول الله صلى الله عليه وسلم قولاً وعملاً فى حياته الكريمة التى مثلت حياة الأمم وحياة الأفراد كيف ينبغى أن تكون .

لقد علم الله أن هذه المدنية المعقدة ستكون ، وأن الإنسانية ستتقلب فى أطوارها التى تقلبت فيها ، وأنها ستفتح لها أبواب العلم ، وأن هذا العلم سيفتح لها فنوناً من القوة ، وأن هذه القوة ستسلمها إلى صفوف من المشكلات لا تحل حلاً مرضياً موفقاً إلا طبق ما سن الله للفطرة من سنن ، وللنفس البشرية من قوانين ، عرفت الإنسانية بعضها ، وجهلت منها أكثر مما عرفت . فلو أن الإنسانية وكلت إلى نفسها وعلمها وجهدها وحده ما خرجت ، وما أمكنها أن تخرج من ورطاتها التى هى لا بد واقعة فيها بتعمقها فى العلم الطبيعى الذى يفتح لها كنوز الأرض من غير أن يريها طريق العدل فى استعمالها . فأراد الله سبحانه أن يتم نعمته على الإنسان بأن يجمع له بين القوة وبين الهدى فى استعمال القوة ، فآتاه العلم ، وقبل أن يؤتيه العلم أنزل عليه الكتاب والحكمة ليريه كيف يتقى شر العلم ويتقى خيره بالوقوف فى استعماله عند الحدود التى حدها الله فاطر الإنسان وفاطر القوى التى سخرها بالعلم للانسان .

فإذا كان من عجيب صنع الله للانسان أن وهبه العقل الذى استفتح به كنوز العلم ، فإن أعجب من ذلك أن تفضل سبحانه فأنزل له الدين ليقيه ما لا يمكن العقل ولا العلم أن يكفوه إياه من الشرور والأخطار

أقسم أن نعمة الله على الناس فى الدين أعجب وأكبر من نعمته عليهم بالشمس أو بالقمر أو بما خلق فى الأرض من كائنات ينعم بها الإنسان أو لا ينعم ، شكوراً أو غير شكور . إن هذه الكائنات خلق من خلق الله ، والإنسان واحد منها يقوى أمام بعض ويضعف إزاء بعض ، ينتفع بها أحياناً ويتضرر بها أحياناً ، لكن الدين خير كله ونفع كله وسعادة صرفة لمن يتقبله مؤمناً ، ويعمل به مسلماً . وأقسم لو سخرت العلوم هذه الكائنات كلها للانسان وكان الإنسان بتسخيرها يتمتع فى هذه الحياة المتعة كلها من غير تعب ولا ملل ولا هم ولا حزن ولا ضعف ولا مرض حتى إذا مات كان الحساب وكان العقاب إذن لكانت نعمة الله على الإنسان بالدين الذى يقيه عذاب الآخرة ويؤتيه نعيمها أكبر من نعمته عليه بالعلم بقدر ما بين الآخرة وبين الدنيا من فرق وفضل فى المدة

وطولها ، أى بقدر ما بين الباقي وبين الفانى أو بين غير المتناهي والمتناهى من فرق وفضل . فكيف وهذه العلوم لا تسخر للانسان إلا جزءاً ضئيلاً مما حوله ، وقد يشقى بما يسخر له منها وقد يسعد ؛ وهو فى أحزانه وهمومه ، ومحابه ومكارهه ، وأمراضه ومصائبه ، لا يجد سلوى ولا مخرجاً ولا عزاء إلا بالدين ، وبطاعة الله فى الدين . وكيف وهو لن يلقى النعيم الصرف الذى لا يخالطه عذاب ، والسعادة المحضة التى لا يشوبها شقاء ، إلا بعد هذه الحياة فى حياة أخرى لا نهاية لها ولا أجل إذا كان قد أطاع الله وعمل فى دنياه بالدين

على أن هناك معنى فى الدين الإسلامى أكرم الله به الإنسان كرامة لا يقوم بها شكر ولا ينقضى منه عجب المتفكر ، ألا وهو تفضل الله جل جلاله بمخاطبة الإنسان من كتاب من عنده سبحانه على لسان رسول من البشر تقوم الأدلة القاطعة على صدقه . إن مجرد مخاطبة الخالق للمخلوق كرامة دونها كل كرامة يكبرها ويجلها الإنسان فى الدنيا ، فكيف والخطاب فى كتاب عظيم كريم مبين . الحق سبحانه هو المتكلم فيه ، فليس لبشر فيه جملة أو كلمة أو حرف ! كتاب من عند فاطر الفطرة وصفه فيه جل وعلا بصفة الفطرة بقوله : « وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد »

أليس من أكبر الكرامة أن يذكر الله الإنسان ولا ينساه ، وأنه يوجه إليه الخطاب فى كتاب يهديه به سبحانه سبل السلام وسبل الهدى والنور ؟ أليس من أكبر النعمة حين علم الخالق سبحانه ضعف الإنسان وجهله وما يتهدده من جرائهما من أخطار أن ينزل عليه نظاماً لحياته هو وفق الفطرة التى لم يكن الإنسان ليحيط بها ولا بسنن الله فيها ؟

إن العلم شئ وتطبيقه من غير خطأ أو خلل شئ آخر . فلو أن الإنسان أحاط بالفطرة علمه لما استطاع أن يطبقها على حياته تطبيقاً محكماً لاخلل ولا عوج فيه . بل إن صعوبة التطبيق وإصابة الحكمة فيه لتزداد بازدياد ما يراد تطبيقه وتفرعه . فالإنسانية بقواها العقلية المحدودة أعجز من أن تحيط بالفطرة علماً ، ولو علمت لكانت أعجز من أن تطبق علم الفطرة وتنتزع منه نظاماً عملياً لحياة الإنسانية فى عصر واحد بله جميع العصور

فإن الخالق البارئ الحكيم قد جمع للانسانية بين علم الفطرة وبين إحكام تطبيقه على الحياة حين أكرمها بالإسلام دين الإنسانية الكامل الشامل الذى أنزله على محمد نبى الهجرة صلوات الله عليه . فاعجب إذن للانسانية كيف تتخبط وبين يديها الهدى ، وكيف تشقى وفى متناولها السعادة ، وكيف تموت وعلى مقربة منها الحياة ؟!

ثم اعجب عجباً بعد عجب من قوم يزعمون من بين الإنسانية أنهم مسلمون إلى الله مؤمنون بالكتاب الذى أنزل والرسول الذى أرسل ، ثم هم يعطلونه ولا يقيمونه ، ويضيعونه ولا يحفظونه ، بل هم يلتمسون الهدى فى غيره ، ويتطلبون الحياة ممن ضل عن روحه ونوره ، ويولون قلوبهم ووجوههم لاشطر المدنية الإسلامية التى أقامها الرسول بتطبيق كتاب الله فكانت مثلاً عملياً أعلى للانسانية كلها ، ولكن شطر المدنية الغربية التى ضلت عن ربها وعبدت المال والقوة والجاه فأداها ذلك إلى الهلكة التى ترى والتى تحاول التخلص منها فلا تستطيع

فريق من الإنسانية بيدهم النور فلا يستنيرون به ! وفريق فى الظلمات يظنون أنفسهم فى نور ! أيهما يا ترى أظلم ؟ ولأيهما يا ترى تكون النجاة ؟

محمد أحمد الغمراوى

إدارة البلديات — مياه

تقبل العطاءات بإدارة البلديات (بوستة قصر الدوبارة) لغاية ظهر يوم ٢٣ فبراير سنة ١٩٤٢ عن إنشاء عملية مياه صغيرة للشرب بينذر قفط . وتطلب المواصفات والشروط من الإدارة نظير مبلغ جنيه مصرى واحد ٨٩٩٢